المحاضرة التاسعة (9): السرد في كتب الرحلات

1/ تعريف الرّحلة: الرحلة فعلٌ يعني انتقال الإنسان من مكان إلى آخر لتحقيق مقاصد معيّنة، وتختلف هذه المقاصد بحسب الدافع الكامن وراء السّفر فقد يكون دينيا (أداء فريضة الحج) أو دنيويا (التجارة) أو استجابة لرغبة خاصة، أو أداء لوظيفة مهنية أو إدارية كطلب العلم، أو جمع الخراج أو السياحة أو التمثيل السياسي بين الدوّل (السفارة)...

أما الرحلة، من حيث هي مؤلف نثري، فهي "وصف السّفر من موضع إلى آخر، وما تقع عليه أبصار المسافر من مشاهدات، وما يستطرفه من أخبار." إنّها شكل نثري سردي يتسع لموضوعات كثيرة: تاريخية وسياسية وثقافية وعلمية ودينية... ولعلّ هذا التنوّع في مادة المتن الرحلي هو ما جعله يحظى باهتمام الدارسين على اختلاف تخصّصاتهم في: التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والاقتصاد والأنتروبولوجيا والإثنوغرافيا. كما شغلت الرحلات دارسي الأدب ليضعوها ضمن جنس مستقلّ عرف بـ"أدب الرحلات".

- **أنواع الرحلة:** إذا نظرنا إلى الرحلة على أنها انتقال من مكان إلى آخر، فإننا نستطيع أن نقسمها إلى نوعين بحسب طبيعة الانتقال:

أ- رحلة واقعية: وهي التي تحدث ضمن مكان وزمان معيّنين، وينتقل فيها الرحالة من مكان جغرافي محدّد إلى مكان جغرافي آخر محدّد ماديا ومتحقق واقعيا. مثل: رحلة ابن بطوطة.

ب- رحلة خيالية: وهي التي ينتقل فيها الرحالة إلى أمكنة متخيلة، مثل رحلة ابن القارح إلى العالم الآخر التي ذكرها أبو العلاء المعري في "رسالة الغفران".

2- الرحلة في التراث العربي:

عرف العرب الرحلة خاصة وأنّ حياتهم كانت تعتمد على التجارة أو على الترحال بحثا عن الكلأ لمواشيهم. وقد ذكر القرآن الكريم رحلتين مشهورتين كانت قريش تقوم بها قال الله تعالى: **{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (4)}.(سورة قريش).** وقد كانت قريش تألفُ الرّحلة في الشتاء نحو بلاد اليمن أما رحلة الصيف فكانت تتجه إلى بلاد الشام. كما أبحرت سفن العرب "في مياه المحيط الهندي حيث اتجهوا شرقا نحو الهند وغربا صوب إفريقيا." وفي عهد رسول الله (ص) بدأت الرحلات التكليفية وأهمّها رحلة الصحابي "تميم الداري" الذي ولّاه الرسول(ص) أرضا قرب الخليل أحد أقاليم فلسطين، وهناك أيضا رحلة "عبادة بن الصامت" التي قام بها بتكليف من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قاصدا ملك الروم لدعوته للإسلام أو إيذانه بحرب.

مع توسع البلاد الاسلامية نتيجة الفتوحات كثرت الرحلات إلى تلك المدن والأقاليم الجديدة لدوافع مختلفة. ومن أشهر الرحلات التي حدثت في **القرن الثالث** الهجري نذكر رحلة "سلام الترجمان" الذي أرسله الخليفة الواثق بالله لمعاينة سدّ يأجوج وماجوج وقد بدأت هذه الرحلة سنة 227ه ودامت 18 شهرا. ومن أشهر رحالي **القرن الرابع** الهجري (العاشر الميلادي) أحمد بن فضلان بن العباس الذي ارتحل الى بلاد البلغار عام 309ه استجابة

لدعوة من ملكها الذي أسلم وأرسل الى الخليفة المقتدر بالله يطلب منه أن يبعث إليه من يفقّهه في الدين ويعرّفه شرائع الإسلام. ويعدّ كتاب أخبار الزمان للمسعودي(ت 346ه) من أشهر كتب الرحلات في القرن الرابع. وقد ساهم المقدسي (336_ 390ه) في رسم صورة للعالم الاسلامي في عصره من خلال كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم".

يعدّ أبو الريحان البيروني (362_ 440ه) من أشهر رحالي **القرن الخامس** الهجري. ولعلّ أبرز رحلات **القرن السادس** رحلة محمد الإدريسي(493- 560ه) الموسومة بـ "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" ورحلة ابن جبير(540- 626ه) المعنونة بـ "تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار" والتي نشرها المستشرقون باسم "رحلة ابن جبير" ومن أشهر الرحالين التجار في القرن **السابع الهجري** ياقوت الحموي (ت 626ه) صاحب المؤلّف الجغرافي المشهور "معجم البلدان". ورحلة العبدري المعروفة بـ الرحلة المغربية، والتي كانت سنة 688ه، أما **القرن الثامن** الهجري فقد شهد أشهر رحلة في التراث العربي وهي رحلة أبو عبد الله اللواتي الشهير بابن بطوطة (703- 779ه) (1304/ 1377م)، وهي الرحلة التي تحمل عنوان "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" دون أن ننسى رحلة عبد الرحمن بن خلدون (ت 808ه/ 1406م) التي تضمنتها سيرته الذاتية "التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا"، ومن أشهر الرحلات في القرن الثاني عشر هجري رحلة الجزائري حسين الورتيلاني (1125ه_1193ه).

3- مميّزات خطاب الرحلة:

تنتمي الرحلة إلى الخطاب السردي، وبما أن السرد لا يستغني عن الوصف، فقد شغل هذا الأخير الحيّز الأكبر في خطاب الرّحلة فهو جوهرها والأساس الذي يقوم عليه بناؤها. ذلك أنّ الوصف آلية مكانية في حين أنّ السرد آلية زمانية، ففي الرحلة ينتقل الراوي الشخص فيبئر لنا ذاته (بؤرة الحكي) في الفضاء الذي تنتقل فيه. إنّه راوٍ متماهٍ بمرويّه ينقل لنا مشاهداته عن طريق السرد، تارة وعن طريق التقرير الوصفي تارة أخرى. ومثال السرد: (خرجنا من...، ووصلنا إلى...، ثمّ انتقلنا) أما مثال التقرير: (فرأيت...، وسمعت...، شاهدت...) فهذه الذات ترى العالم (الفضاء الذي تتحرك فيه) وتتكلم عنه. وهذا يعني أنّ خطاب الرحلة يتمفصل إلى خطابين مختلفين ومتكاملين في الوقت نفسه على النحو التالي:

أ_ الراوي _ المبئر: الوصف _ ضمير الغائب_ المعرفة الموضوعية.

ب_ الراوي– الشخصية: السرد – ضمير المتكلّم_ التجربة_ الذاتية.

إنّ التبئير يتمحور في خطاب الرحلة على ذات مركزية تنتقل في الفضاء/ الموضوع لكنّها تظل على مسافة منه، فكلّ ما يقدّم يتم من منظور هذه الذات، وهذا المنظور يتغير بتغير الصوت السردي، فنكون مع الراوي المبئر أمام رؤية برانية موضوعية ومع الراوي الشخصية بصدد رؤية جوانية ذاتية.

إنّ ما يحقق أدبية نص الرحلة هو التنويع في أنماط الخطاب إذ يجمع كاتبها بين السرد والوصف، فالراوي يسرد حين يتحدث عن المتحرّك(الحركة)، ويصف حين يتحدث عن الساكن (الثبات). وقد يعمد إلى الحوار والتحليل وإصدار الأحكام، أو يقدّم معلومات أو يقول شعرا (بعض الرحالة شعراء)، أو يستشهد بآية قرآنية أو بأبيات شعرية أوحكمة أو قول

مأثور؛ وهنا تتداخل الخطابات الأدبية والدينية والمعرفية... وتتفاعل فيما بينها مانحة النص الرحلي بعدا جماليا لايقلّ عن الجمالية التي يحققها جنس الرواية اليوم، إنّه ينبئ عن طاقة قصصية كبيرة ومقدرة سردية فذّة عرف بها العربي وهو الأمر الذي يجعل من هذا الجنس الأدبي (أدب الرحلة) دليلا على وجود فن القصة في الأدب العربي القديم.

قد يتعرّض الراوي/ الشخص إلى مواقف طريفة أو محرجة، ويصادفُ ثقافات وعادات مختلفة عمّا يعرفه في بلده الأصلي (وكذلك القارئ). فهي مواقف تبدو غريبة وغير مألوفة أو مدهشة. وهنا تتوّلد الغرابة في النص لتجعل السرد مشوّقا وآسرا للمتلقي في بعض المواضع، ليحقّق بذلك السرد وظائفه المنوطة به في النّص الرحلي: المعرفة والمتعة والعبرة أعيانا. ومن أمثلة ذلك: الخبر الذي نقله ابن بطوطة عن نساء الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار بعد وفاة أزواجهن وفاء لهم، في طقوس غريبة كاد من هولها أن يغمى على الراوي. كما أنّ رسالة ابن فضلان تحفل بعجيب والغريب، ومن ذلك ماذكره في وصف قوم من الأتراك الذين"لا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك وليس بينهم وبين الماء عمل، خاصّة في الشتاء، ولا يتستر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم، وكذلك لا تستر المرأة شيئا من بدنها عن أحد من الناس."

كتبت الرحلات بأسلوب فني بعيد عن التكلّف والصنعة اللفظية، إلا أنّ بعض الرحلات (رحلة العبدري مثلا) قد كتبت بأسلوب أدبي فني مبني على الدّقة في اختيار اللفظ الدال على المشاعر والمناسب لمقام الوصف، مع استخدام التصوير الفني ببعده الإيحائي والمزج المتناغم بين النثر والشعر الأمر الذي طبع الوصف في نص العبدري بصبغة شعرية.

- **أهم المراجع:**

1. ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تح: محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط1، 1987.
2. أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2000.
3. أحمد بن فضلان، رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى، تح: سامي الدهان، المجمع العلمي العربي، دمشق.
4. حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، دراسة تحليلية من منظور إثنوغرافي، عالم المعرفة، الكويت، 1989.
5. سعيد يقطين: السرد العربي، مفاهيم وتجليّات.
6. فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، مصر، ط2، 2010.